المحاضرة العاشرة: المقترب البنائي في تفسير التلقي في المشاهدة التلفزيونية:

من بين الأعمال التي تندرج ضمن الدراسات الحديثة لتلقي الجمهور للنصوص الإعلامية نجد أيضا المقترب الذي إهتم بالنصوص وعلاقاتها البنائية من جهة والدلالات التي ينشئها الجمهور نتيجة فهمه لمعانيها من جهة أخرى، ومن بين هذه الدراسات نذكر دراسة كل من:

1- التلفزيون والنقد المبني على القارئ Robert ALIN:

يعتبر النقد المبني على القارئ من المقاربات النقدية المعاصرة التي نشأت وتطوّرت خلال الستينات والسبعينات؛ ويرى (روبرت ألان) أنّ تأكيد النقد المعاصر على الشفرات والتقاليد عند دراسة النص والمرجعية المحتومة التي تقام بين النصوص، يبدو ملائما على نحو خاص لدراسة التلفزيون، فالتلفزيون واحد من أنظمة العلامات المعقّدة الكثيرة التي من خلالها يجرّب المشاهد العالم ويعرفه.

ويستخدم (روبرت ألان) النقد المبني على القارئ لشرح العلاقة التي تربط بين المشاهد وعوالم الأوبرا الصابونية المبثّة في التلفزيون الأمريكي، إذ يرى مؤلف الدراسة أنّ هذه العلاقة تتضمّن فعل قراءة يمكن أن يدوم عقودا من الزمن، ويختبر (روبرت ألان) مستعينا بهذا النقد، الصيغتين الرئيسيتين من صيغ إرتباط المشاهد بالتلفزيون: صيغة أفلام هوليوود، وفيها يكون إرتباط المشاهد على نحوٍ مقنّع، والصيغة البلاغية وفيها تتمّ مخاطبة المشاهد مباشرة – وهذا ما يكون في الإشهارات التلفزيونية التي تخاطب المتلقي مباشرة –، وتظهر إمكانية الإستفادة من النقد المبني على القارئ في قراءة برامج التلفزيون من خلال كون أنّ النصوص التلفزيونية ما هي إلاّ نصوصا مقروءة والإختلاف يكمن في الوسيلة وحسب، وعليه فإنّ نظرية التلقي ونقد إستجابة القارئ والنقد المبني على القارئ أسماء تطلق على تشكيلة من الأعمال في الدراسات الأدبية، تعطي الصدارة لدور القارئ في فهم النصوص وإستقاء المتعة منها، حيث يقول (آيزر) " أنّ المعنى شيء لا يمكن أن يستخرج من نصّ ما، كما يستخرج الفحم من جانب التل "، إذن ملاحظة أنّ المعنى لا يوجد إلاّ من خلال فعل القراءة، لم يتُسَبّب في ظهور مقاربة واحدة للأدب، وإنّما عدة مقاربات تهتم بدراسة كل من الفيلم والتلفزيون والأشكال الأخرى من النتاج الثقافي، وأحسن دليل على ذلك ما قام به (روبرت ألان) في دراسته هذه التي صدرت في كتاب عنوانه " قنوات الخطاب" والّذي يضمّ ثماني دراسات، تتبنى كل منها مقاربة نقدية معاصرة في قراءة التلفزيون الأمريكي، حيث حاول (روبرت ألان) تطبيق نظرية (آيزر) الخاصة "بفعل القراءة " على التلفزيون، بل على شكل من أكثر أشكال السرد التلفزيوني شعبية المرتبط بِ أوبرا الصابون Soap opera، إذ تساعد هذه النظرية على تفسير العلاقة بين مشاهدي أوبرا الصابون والعوالم التخييلية المبنية على نحوٍ يثير الغرابة .

ويرى (روبرت ألان) أنّ مشاهدة أوبرا الصابون تَتَنَظَّمُ بواسطة كونها مقسمة إلى حلقات يومية، وأنّ الصفة المميّزة في الأفلام وبرامج التلفزيون، هو معدّل قراءة المشاهد لها، فقراءة البرامج التلفزيونية على إختلاف أنواعها من عمل النص نفسه لا من فعاليّة قراءة المشاهد، حيث تنطلق الصور فيها بسرعة حسب معدّل مقرّر مسبقا ولا يمكن تغييره، وليس تنظيم القراءة هذا في أوبرا الصابون والأشكال التلفزيونية الأخرى أمرا تقنيا فقط ولكن عرفيا أيضا، إذ يوزّع جزء محدّد من النص على كل حلقة وعلى كل مشهد داخل الحلقة، وبلغة النقد المبني على القارئ يشكّل الوقت بين نهاية إحدى الحلقات من أوبرا الصابون وبداية الحلقة التالية فجوة إجبارية، تجعل مشاهديها يتحدثون مع الآخرين عن قصصها، ولا توجد الفجوات النصيّة بين حلقات أوبرا الصابون فقط، بل توجد كذلك داخل كلّ حلقة، إذ تخطط كل حلقة حول موقع الإشهارات، بحيث أنّ المشهد الذي يسبق مباشرة إشهارا يثير سؤالا سرديا، ويعتبر راعي البرنامج النّص السردي في أوبرا الصابون مجرّد ذريعة للإشهار، أمّا في نظر المشاهد من ناحية أخرى، فقد يكون الإشهار إعاقة في السرد، أي فجوة أخرى بين أجزاء النص تهيّئ فرصة ممتازة لتعيين أهمية المعلومات النصيّة السابقة، وإعادة صياغة التوقعات فيما يخصّ تطوّرات المستقبل.

إنّ الفجوات التي تكوّن بُنية التجربة في مشاهدة أوبرا الصابون: الفجوات بين الحلقات، وبين المشهد والذي يليه، بالإضافة إلى الفجوات الّتي تحدثها حواجز الإشهارات، تغدو أهم حين يفكّر المرء في البرنامج الذي يشاهده وكيف تؤثّر على تعاقب الأحداث، وبالتالي فالنصوص التلفزيونية تحمل داخلها مكانا مخصّصا ليشغله القارئ عن طريق فهمه وتأويله للمعاني الموجودة فيها، ويتمّ ذلك عن طريق فعل القراءة الذي من خلاله يطوّر المشاهد فهمه للبرنامج المشاهد.

2- دراسة فك مدونات الأخبار (Justin Lewis):

تعتبر دراسة Lewis بعنوان فك مدونات الأخبار (Decoding Télévision News) من بين المساهمات الهامة في ميدان بحوث التلقي، حيث تندرج هذه الدراسة ضمن مقترب "الإعلام العام"، الذي يدور محورها حول مختلف العمليات التي يمكن من خلالها أن ينتج الجمهور معان مختلفة، إذ ركّز الباحث على عمليات صنع المعنى من التلفزيون بدلا من التركيز على القضايا والقيم التي تنقلها التقارير الإخبارية التلفزيونية، حيث إعتمد الباحث على منهجية إستجواب خمسين مبحوثا كانوا قد شاهدوا البرنامج، ثمّ قام بمقارنة ذلك بالخصائص المحددة للنشرة الإخبارية (نشرة العاشرة مساءا في القناة التجارية البريطانية I T N – تقديمات مقدم النشرة ومزجها للكلام والصورة وتتالي اللقطات ومواقع تقارير الصحفيين الموفدين وكيف تختم القصة الإخبارية)، حيث إرتكزت دراسته على عملية المشاهدة وتأويلات المشاهدين لما سمعوه وشاهدوه من جهة وبإعتماده على بنية النص من جهة ثانية، ولقد وظّف Lewis مصطلحين إستعارهما من النقد الأدبي لِ (بارث) وهما: مصطلح lexie (الكلمة أو العبارة) حيث يشير إلى وحدة المعنى الّذي يدركه المشاهد وليس وحدة محددة من قبل تحليل الباحث، والتّي قد تختلف من مشاهد إلى آخر بسبب الإختلاف في العناصر البصرية واللّفظية التي يسجّلها المشاهد تتعلق بمسألة الإنتباه والإدراك الإنتقائي والإختلافات في المعنى التي يعزوها المشاهد إلى ما يسمعه ويشاهده، فمثلا: لقطات تظهر عمالا أمام بوابة المصنع

قد يتمّ تسجيلها على أنهّا مهمّة من طرف كل المشاهدين لكن البعض قد يبني lexia (كلمات أو عبارات) عمال عاديين والآخر قد يبني Lexia تشير إلى نقابة، أما المصطلح الآخرtheme أو" المشبّه" ويشير إلى فئة من المعنى تقع على مستوى أعلى من الكلمة أو العبارة، ويولّد المشاهدون المشبهات من الأقسام المختلفة من القصة الإخبارية من خلال توليف lexia أي الكلمات أو العبارات لإنتاج معاني في شكل إقتراحات فيما يتعلّق بالمفردة وما تدور حوله وبما حدث أو لم يحدث، ونتائج هذه الدراسة تكشف عن أنّ المعاني التي يكوّنها المشاهدون من الأخبار ليست دائما تلك التي يقصدها منتجو النصوص، إذ قد تتوافق أو لا تتوافق ،و تجدر الإشارة إلى أنّ هذا المقترب يقوم على تحليل مزدوج للنصوص وتأويلات الجمهور المشاهد.

3- تأويل الأخبار التلفزيونية: (Marisa Viola)

من بين الدراسات الّتي تنتمي إلى نفس الطرح الذي جاء به Lewis، هناك دراسة Marisa Viola تحت عنوان Interpretation of T.V News تأويل الأخبار التلفزيونية"، والّتي تحاول الباحثة من خلالها تبيان أوجه الاختلاف والنشاط الّذي يتميّز به الجمهور في تفسيره للأخبار التلفزيونية، إذ وقع إختيار الباحثة لبرنامج إخباري تمّ بثّه في قناة BBC1 يوم 29 مارس 2002 على الساعة 16:55، وقد إختارت الباحثة عينة تتكوّن من أربعة أشخاص ينتمون إلى جيلين مختلفين (رجل 51 سنة، امرأة 52 سنة) و(شاب 24 سنة، امرأة 32 سنة)، يكونون قد شاهدوا البرنامج الإخباري المستهدف، علما أن الباحثة إعتمدت على أداة المقابلة في إستجواب المبحوثين وذلك مباشرة بعد نهاية العرض الإخباري، وطلبت منهم إعادة قص الأحداث الّتي تمّت مشاهدتها، وقد توصّلت الباحثة إلى نتيجة مفادها أنّ المبحوثين إختلفوا في طريقة ترتيبهم وتفسيرهم للأخبار الّتي تمّت مشاهدتها(علما أنّ القضية الفلسطينية هي الّتي إحتلّت الصدارة في الترتيب)، فمثلا المبحوث الذي يبلغ من العمر 51 سنة كان قد قدّم تفسيرات جد هامة تختلف وتتعمّق أكثر من التفسيرات الّتي قدّمها المبحوث الذي يبلغ من العمر 24 سنة، وهذا إن دلّ على شيء- حسب الباحثة – فإنّما يدلّ على تدخل عنصر المعرفة المسبقة التي يملكها المستجوب الذي يبلغ من العمر 51 سنة أكثر من المستجوب الآخر، وبالتالي إعطاء نوع من التفاصيل للقضية المشاهدة، لذا فعند مشاهدة الأخبار فإنّ المشاهدين يختلفون في تفسيراتهم للنصوص المشاهدة، وهذا راجع إلى طبيعة النّص في حدّ ذاته وتعقيدات الجمهور، وبالتالّي يعمل الجمهور على ملء مالم يصرّح به النص التلفزيوني إنطلاقا من تجربته وخبراته السابقة.

إنطلاقا من الأعمال السالفة الذكر حول تلقي النصوص الإعلامية، فإن تحليل القراءات والإستعمالات المتباينة لوسائل الإعلام له فائدة جدّ مهمّة، وذلك من خلال المكانة التي يحتلها الفرد المستهلك – الذي يقال بأنّه سيّد إختياراته في عالم تلفزيوني مليء بالبرامج- في تلقيه للبرامج التلفزيونية، ومن ثمّة يقوم بإضفاء معاني ودلالات نتيجة المشاهدة والمتعة التي تقدمها له هذه البرامج، مما يؤدي إلى إزالة اللّبس حول التأثير المباشر لوسائل الإعلام ومنحها بالتالي لسلطة المعنى والتأويل الموجودة لدى المتلقي الفرد في حدّ ذاته.

تجدر الإشارة في هذا الشأن إلى أنّه من الوظائف الأساسية الّتي يقدمها التلفزيون هي: التعليم، والترفيه، والتسلية، وبصفة أشمل ما يسمى بالمتعة، لذلك فإنّ المتلقي سوف يتجاوب مع البرامج التي تحقّق له هذه المتعة وإلاّ سوف يعزف عنها.